وقفة تأمل.. حليب المملكة والناقة الفضائية.. الجنوب لا يحتمل الغدر مرتين

«الأمناء» تحليل/ د. أحمد عبدالله

كانت المملكة السعودية تدرك تماماً بأن الجنوب لديه قضية لا تتأثر صعوداً وهبوطاً باختلاف القوى المهيمنة على السلطة في صنعاء، مهما كانت جذورها الأيديولوجية أو الطائفية. وعلى خلفية ذلك أدركت منذ الأيام الأولى لعاصفة الحزم، أنه يتعين إيجاد حافز معنوي قوي لمواصلة حشد الجنوبيين نحو الجبهات، بعد أن أظهروا استعدادات واسعة وغير مسبوقة للدفاع عن أرضهم؛ فكان الخطاب الإعلامي السعودي موجهاً لاستيعاب اللحظة الحرجة. وهكذا برزت أصوات من المحللين تشير بوضوح إلى الجنوب وقضيته وتطلعاته المشروعة، واشتغلت المغنطة الإعلامية على مفردات الغزل لمخاطبة وجدانه وهواجسه، مع إعطاء مساحة لحرية القول والانفتاح على المصطلحات والمسميات الجنوبية.

وبالرغم من محاولة إعداد بعض «مستحضرات» الخطاب الديني-الطائفي على المنابر والشاشات، إلا أن الحافز عند الغالبية العظمى تَمثل في أمر واحد اسمه «الجنوب» وتحت رايته.

ولكن ما أن تحررت عدن ومحيطها حتى تغيرت اللهجة الإعلامية تدريجيا، وتراجعت نبرات الأصوات المتلفزة الجريئة؛ بل واستُبدلت المسمّيات الحقيقية بمفردات ملتبسة.. حتى تحولت إلى سياسة صارمة (تابو) لمنع كل ما يُنسب إلى الجنوب في سرد الأخبار والتحليلات وغيرها. بل وذهب بعض الكتاب السعوديين الكبار إلى تبنّي خطاب معادٍ للحق الجنوبي بطريقة مستفزة.

ومع الوقت تحول الإعلام السعودي إلى ناقة فضائية كسولة ومملة تتخبَّط في أخبار الحروب الراكدة، وتتمترس خلف مصطلحاتها الخاصة .

انقلب المزاج.. و«ماتت العنقاء وانصرف الصحابة».. وتُرك شعب الجنوب المحرَّر عائماً فوق الاحتمالات وعُرضة للجوع والظلام و«الأصياف» الملتهبة.. وعرضة أكبر للأزمات الداخلية ومخاطر الانفلات جراء تصادم المشاريع السياسية التي لم تعد تخفى على أحد .

والآن وبعد ثلاث سنوات من تحرير عدن ومحيطها الجنوبي (مرّت وكأنها مائة عام من البؤس) هناك غضب متعاظم قد يشكل شرارة قادمة، إذا استمرت حالات التغاضي عن أوضاع الناس الكارثية.. خاصة مع تنامي الشعور العام بأن الجنوب بعد كل التضحيات لم يعد يمتلك من أمره شيئًا، إلا ما يمَكّنه من تجهيز شبابه لحروب لا نهائية في الشمال، ولضرورة مواجهة الإرهاب باعتبار ذلك مطلبًا إقليميًا ودوليًا، ولكن أيضاً دون حسم، لأن هناك فيتو واضح ضد «إغلاق الحنفية» قبل تنظيف الأرض.

أي أن على الجنوب أن يدافع عن الأرض شمالاً وجنوباً من التمدد الحوثي، وأن يواجه خطر الإرهاب.. وأن يصبر على الجوع والعطش والظلام.. وعليه بالمجمل أن «يحافظ على الناطور دون أن يأكل العنب».

لقد استوعب الناس، كما يبدو، أمراً غاية في الأهمية وهو: أن عدن لم تكن خطًا أحمر أمام الجميع لكي تعود إلى أهلها معززة مكرّمة، كما فُهم من رسالة المملكة عشية عاصفة الحزم، بل هو خط تلوّنه حسب حاجتها الاستراتيجية، بغض النظر ماذا يريد أهل عدن والجنوب وماذا سيحل بهم بعد ذلك. وقد تحين لحظة قادمة -إن تجاوز الشقاء حدود المعقول- ليفهم الإقليم بالمقابل أن عدن، وبعد نفاد الصبر، قد تضع ألوان خطوطها كما تشاء، مثلما يفعل الآخرون.

دعم المملكة لا يُعطى مجّاناً للشعوب التي تتطلّع إلى حريتها، وإنما لمن يخدم شروط بقائها كدولة محورية وقوية في مواجهة طوفان المتغيرات وزمن الانكشاف التام والعولمة والشفافية والإعلام الجماهيري المفتوح وحريق الصراعات الإقليمية (وهذا حقها). وقد يُمنح للجهات التي يتم ترويضها واحتواؤها في سياق الصراعات المتعددة. وهذا الأخير يفسر علاقتها المعقدة والغامضة مع تنظيم الإخوان فرع اليمن وحجم الرعاية «السامية» له بالرغم من سياستها المعلنة، ومن خناجر «خلاياه» وأعضائه التي تنهال على المملكة من أماكن إقامتهم وحتى من داخلها.

وهكذا قد يُفهم عند عامة الشعب (مجرد افتراض) بأن الحوثيين لو عرضوا، يوماً ما، تغيير الولاء بصدق وأمانة سينالوا حصتهم من «حليب المملكة» وستصبح صنعاء وما حولها مشمولة بالعناية والتدليل.

بالنسبة للجنوب لا أحد يفهم ما وراء الستار؛ لأن هناك ضبابًا تقليديًا يغلف موقف المملكة مع غياب تام لأي مؤشرات إيجابية، حتى وفق مقتضيات الراهن المعقد وظروف المواجهات. ولا يُظهر سلوكها أي تفاعل مع حقيقة أن الدماء الجنوبية ليست في مهمة عروبية أو طائفية وإنما لها أهداف معلنة وشفافة ولا تقبل التأويل. وبالتأكيد هناك أولويات لا يجب القفز عليها. أمر مفهوم للغاية. لكن الناس تحتاج إلى أن تعيش وأن يُرفع عنهم العبث... وهو بالمناسبة ليس شأن داخلي. هل هذا يإخوة العرب صعب على الفهم؟

توجد شراكة استراتيجية بين السعودية والإمارات وتبادل أدوار على مستوى الإقليميّ وفي ساحات عربية ودولية. ويوجد أيضاً «تفاوت» في المواقف وفقاً لمسطرة المصالح وأولويات كل من الدولتين وخصوصيات مناطق تدخلهما. وبالتأكيد هناك محددات وضوابط للشراكة ومساحة الاختلافات التي لا يمكن تجاوزها.

ومع وضوح الرؤية «نسبياً» عند الإماراتيين حول أهدافهم وتحركاتهم المباشرة على الأرض وفي الميادين، بغض النظر عن المواقف المختلفة منها، إلا أن الغموض المحيّر ما يزال سمة تاريخية في الأداء السعودي. ولهذا يبقى القلق الكبير من مقاربتها للحالة اليمنية بشكل عام والجنوبية بصورة محددة مُبرَّر للغاية. خاصة وأن له ما يعززه من نماذج الإخفاقات التي رافقت أداءها في الملفات الإقليمية والعربية.

لكن الحالة اليمنية تبقى درسًا «وافر الدلالات» يتطلب وقفة تأمل وإعادة قراءة البدايات الأولى للأحداث. فمثلما تبين من مقابلة سفيرها في مايو الماضي، فإن المملكة السعودية لم تكن على دراية كاملة لما ستؤول إليه الأوضاع في صنعاء قبل أيلول ٢٠١٤، والديناميكية المتسارعة في تغيير خارطة التحالفات السياسية بالتوازي مع حالة البطء العقيم في أداء مؤسسة الرئاسة اليمنية. ولم تكن للمملكة عيون وآذان وأجهزة فاعلة للإنذار المبكر بما سيحل بالبلد الجار رغم الاستثمارات التاريخية في شراء الولاءات وخبرتها التاريخية بالشأن اليمني (الشمال)، وهيبة السفارة الرابضة وسط العاصمة كالأسد العجوز.

فتحول سعادة السفير إلى متعهد «لاجئين»، ومسئول لوجستي في تهريب الشخصيات السياسية والعسكرية والدبلوماسية جواً وبحراً وبراً، من خلال علاقاته الخاصة.

ذلك ما يشير إلى الحالة المترهلة للحضور السعودي آنذاك، قبل «عاصفة الحزم». ويشير أكثر إلى أن صياغة المبادرة الخليجية كانت مجرد «لفتة فوقية» لتسكين حالة «الجار المزعج» دون الانتباه إلى عمق الأوجاع الكبرى وتداعياتها على الإقليم؛ فهل تغيرت المملكة بعد عاصفة الحزم؟

مهما تكن شكل الإجابة؛ فإنها بالنسبة للحالة الجنوبية ليست كافية.. لأن شروط البقاء لا تقبل التخمين، وقبل ذلك لا تحتمل التسويات. وتلك هي المسألة.